مخطوطات إسلامية تحت أيدي اليهود

د. محمد بن لطفي الصباغ

لم تكتشف مخطوطات تراثنا الباقية كلها، ويكاد المرء المتابع لأخبار التراث وما يعثر عليه منه أنْ يذهب إلى أنَّ هناك عدداً كبيراً من المخطوطات الموجودة لا نعرف شيئاً عنها، وقد سلمت من عوامل الضياع ولكنها مهددة إن لم يتداركها أصحاب الغيرة، وذلك بمحاولة الكشف عنها وجمعها ثم فهرستها وصيانتها، وتختلف تقديرات العلماء المختصين لعدد المخطوطات الموجودة الآن : فمن قائل إنها ثلاثة ملايين، ومن قائل إنها أكثر، ومن قائل إنها أقلّ. وإذا أضفنا إليها الوثائق التاريخية المتصلة بأمتناوالمحفوظة في بلاد الغرب والمسلمين زادت على خمسة ملايين.

وقد قامت دولة الإمارات العربية المتحدة بجمع عدد من هذه الوثائق وتصوير عدد آخر(١) والاحتفاظ به. وهو عمل مشكور طيب.

وما تزال المكتبات الخاصة الموروثة، والمكتبات المخبأة في الزوايا المنقطعة، والمساجد النائية، مجهولة حتى عند كثير من المهتمين بالمخطوطات.

ومن هنا كنت إذا وقفتُ على خبر كتاب مهم لا يعرف له الآن مخطوط كنت أقول : لعلّنا نقف على مخطوطة له في المستقبل، ولا أُجزم بنفي وجوده، ذلك لأنَّ كثيراً من الكتب التي كان يُظنّ أنها مفقودة وجدت وطبعت. وسأذكر أمثلة ثلاثة على ذلك.

١) **ديوان ابن درَّاج القسطلي المتوفي سنة ٤٢١هـ : يقول د. محمود علي مكي في تقديمه للديوان :**

(... لا سيما وأن ديوان ابن دراج كان في حكم المفقود، لا يعرف أحد له مستقراً حتى كان شتاء عام ١٩٦٠م حين دُعي أُستاذنا الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد إلى الرباط لإلقاء سلسلة من المحاضرات على طلبة الجامعة المغربية، وكان من المصادفات السعيدة أن يلتقي هناك بالعالم المغربي الفاضل الأُستاذ الشيخ الفقيه محمد التطواني. ويطلع لديه على النسخة المخطوطة التي كانت في حوزته من ديوان ابن دراج.

وقد كان مجرد اكتشاف نسخة مخطوطة من ديوان ابن دراج حدثاً جليلاً في ذاته؛ فقد كان الرأي السائد بين الباحثين في تاريخ الأدب العربي أنَّ هذا الديوان قد فقد في كثير مما ذهب من تراث ثقافتنا العربية. ولهذا فقد بادر الدكتور حسين مؤنس باستئذان الشيخ التطواني في تصوير هذه النسخة المخطوطة تمهيداً لنشرها، فأذن له العالم المغربيُّ في ذلك. وما إن قدم الدكتور مؤنس إلى مدريد حتى تكرَّم بإهدائي تلك النسخة المصورة لكي أُشرع على الفور في تحقيقها ونشرها. ومنذ ذلك الوقت توفرت على العمل في ديوان ابن دراج حتى انتهيت من تحقيقه وإعداده للنشر...)(٢)

٢) **صحيح ابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١هـ.**

كان المظنون عند العلماء أنَّ هذا الكتاب مفقود. وظلَّ الأمر كذلك إلى أن تمت فهرسة مخطوطات مكتبات تركيا، فعثر عليه هناك صديقنا الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ونشره في بيروت ثم في الرياض.

٣) **سنن النسائي الكبرى للإمام النسائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ.**

ظَلَّ هذا الكتاب مفقوداً مدة طويلة، وكان يظنُّ المختصون بعلم الحديث

أنَّهُ غير موجود حتى تبيَّن أنه موجود. ويقوم بطبعه الآن صديقنا الشيخ عبدالصمد شرف الدين في الهند.

وكثيرٌ غير هذه الكتب كان في حكم المفقود ثم دلت التحريَّات على وجوده فخرج إلى حيز الوجود، وتوفر بين أيدي طلبة العلم، ولا أريد في هـــذه الكلمة الإكثار من الأدلة على صحة هذه الفكرة، ولا أريد أن أورد أسماء مكتبات كانت مجهولة ثم عرضها بعض المختصين، وهي موجودة الآن في أكثر من مكان في عالمنا الإسلامي.

ومن النادر أن تخلو مكتبة عالم من علماء القرن الماضي، الذين تتلمذ عليهم جيلنا، من عدة مخطوطات متفاوتة في تاريخ النسخ.

وإنني لأعرف عدداً من هؤلاء العلماء كانت لديهم مخطوطات نفيسة، وما ندري عنها شيئاً الآن. بل إني لأذكر أنه كان في حيّ الميدان من مدينة دمشق دكان مملوء بالكتب المخطوطة، وكان صاحبه يؤجّر هذه الكتب ليلة أو ليلتين، لأنها كانت قصصاً شعبية، مثل قصة عنترة، والزير، والملك الظاهر، وغيرها، وكان بعضها منسوخاً من زمن قديم.

ورأيت من كتب عمي الشيخ صالح الصباغ عدداً من الكتب المخطوطة.

بل لقد وجدتُ مرة عند (بسطاطي) في دمشق مخطوطة ـ والبسطاطي في لغة أهل الشام رجل يبسط بساطاً يضع عليه أدوات قديمة وأواني مستعملة ومفاتيح وأمتعة أخرى يعرضها للبيع ـ وكانت هذه المخطوطة كتاب «تدريب الراوي شرح وتقريب النوادي» للسيوطي، وهو كتاب من أهم كتب المصطلح. فاشتريتها ثم أهديتها إلى أخي الأستاذ زهير الشاويش لما أعلم من حرصه على المخطوطات وصيانته وحفظه لها.

هذه توطئة قدمتها بين يدي كلمتي عن مخطوطاتنا الوفيرة التي تحت أيدي اليهود اليوم، وأردت من هذه التوطئة أن أبيّن أن ثروتنا الفكرية ما تزال منثورة هنا وهناك، معرضة للضياع حتى وهي في أيدي المسلمين، فما بالنا وقد آل أمر هذه الثروة إلى اليهود.

وأرجو أن يكون لهذه الكلمة أثر عند من يملكون القدرة على خدمة أمتهم وتأييد

دينها، وحماية تراثها. وما زال في الوقت متسع، وما زال المجال مفتوحاً للذين يريدون أن يعملوا من القادرين.

وطلبة العلم لا يملكون إلا الكلمة يقولونها، وليس من شك في أن للكلمة سلطانها وقوتها، جعلنا الله ممن يقولون الحق وممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

إنَّ لدى اليهود الآن في فلسطين خزائن نفيسة من كتب تراثنا، وإن علينا واجباً نحو هذه الكنوز التي هي من إنتاج أجدادنا.

وهذه الخزائن نوعان : نوعٌ معروفٌ مكانُه، مفهرسةٌ كتبه، ولكنَّ تلك الكتب مهملة معرّضة للتلف والضياع. ونوعٌ مجهول، كان من ممتلكات بعض الأسر العلمية، ثم بعد النكبة الأولى عام ٤٨ والنزوح آل هذا النوع من الخزائن إلى العدو، والله أعلم بحاله، وحجم هذا النوع الثاني ليس بالقليل، وإنك لتجد بعض أخباره عند نفر من الشيوخ الأفاضل من علماء فلسطين(٣).

ومن الموافقات الحسنة أنني عندما بدأت بالتفكير في كتابة هذا الموضوع وجمع المادة العلمية له رأيتُ نداءً موجهاً من شيخ الأزهر نشرته جريدة الشرق الأوسط في عدد الجمعة ١٩٨٥/٥/١٠ عنوانه : (نداء لإنقاذ المخطوطات الإسلامية في القدس) وجاء تحت هذا العنوان ما يأتي :

(دعا فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الجامع الأزهر الأثرياء العرب والمسلمين إلى المساهمة مع الهيئات الإسلامية لإنقاذ وصيانة المخطوطات الإسلامية الموجودة في مدينة القدس التي تتآكل يوماًبعديوم، بفعل العفن والإهمال وقلة المال. وهي تُعَدُّ بمئات الألوف. وقال شيخ الأزهر في نداء وجَّهه عبر (الشرق الأوسط) خلال حضوره اجتماعات المؤتمر الرابع للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية؛ إنني أنادي المسلمين جميعاً شعوباً وحكاماً أن يوحدوا كلمتهم، وأن يرتفعوا فوق كل خلاف، ليتجاوزوا الأزمة التي نعيشها حالياً من تفكك وحروب وفتن، من أجل مواجهة العدوان الذي يسلب أرضهم، وما زالوا مختلفين. وأضاف أنَّ شأن المخطوطات الإسلامية

الموجودة في القدس شأن المدينة المقدسة نفسها. فأين العرب بأموالهم وقوتهم؟ وأين المسلمون؟)

لقد أثار فيَّ هذا النداء أشجاناً وانفعالات، ونكأ في صدري جروحاً لم تندمل ولا يمكن أن تندمل... ولن أتعرَّض إلى تلك الأشجان والانفعالات ولا إلى هاتيك الجروح التي ما تزال تنزف في أعماقي.. وإنما أود أن أضع بين أيدي القادرين اقتراحاً عملياً يواجه هذا الدمار الفكري الذي يتعرَّض له نصيب من تراثنا. وفي المسلمين خير كثير، وفي أغنيائهم بذل وسخاء إذا وثقوا بالجهة التي تتسلم المال.

ولنقف قليلاً مع نداء شيخ الأزهر، ثم لنتعرف إلى أهم المكتبات في بلادنا المحتلة في فلسطين، ثم لنذكر الاقتراح العملي الذي نراه :

جاء في نداء شيخ الأزهر عن هذه المخطوطات : (وهي تُعَدُّ بمئات الألوف).

أقول : لا أدري مدى الدقة في هذا القول، ولو أردنا أن نأخذ أقل ما يصدق عليه الجمع وهو ثلاثة لكان هناك ثلاثمائة ألف مخطوطة تتعرّض للضياع.

ومهما يكن من أمر المبالغة في هذا الرقم فإن دلالة هذا القول واردة وهي أنَّ عدد هذه المخطوطات كبيرٌ جداً.

وقد يكون كثير من هذه المخطوطات وحيداً لا توجد منه مخطوطات أُخَرُ في مكان آخر من الدنيا، وربما كان كثيرٌ منها لم يطبع بعد.

ذكر شيخ الأزهر ما يتهدّد هذه المخطوطات من عفن أو إهمال. وهذا أمر وارد، ولم يذكر ما يمكن أن تتعرّض له من حرق أو قصف أو نسف لخزائنها ولم يذكر ما يمكن أن يصيبها من الإتلاف المتعَّمد، فلقد حدثني قيّمٌ لدار مخطوطات في بلدٍ عربي أنَّ مخطوطة قديمة وحيدة موضوعها دراسة فرقة معينة، وفيها آراء هذه الفرقة ونبذ من أخبار رجالها وتاريخها تعرضت للإتلاف، وذلك عندما استعارها مستعير واستطاع إخراجها من المكتبة بنفوذ وسيط كبير.. ثم ادّعى أنها ضاعت منه، وأنه مستعدٌ أن يدفع الغرامة التي تفرضها عليه الدار.. وضاعت هذه المخطوطة المهمّة بالإتلاف، أتلفها رجل من أتباع هذه الفرقة

ساءه أن يكون هناك كتاب فيه من الحقائق ما يؤلمه فقرر التخلص منها.. وقد فعل!! فما يدرينا ماذا سيفعل اليهود وهم قوم لا أمان لهم بما يلاقون من مخطوطات تذكر حقائق عنهم وعن تاريخهم الأسود؟!.

وذكر شيخ الأزهر مخطوطات القدس، ولم يذكر المخطوطات الموجودة في غيرها من مدن فلسطين. وإني لأتوقع أن يكون في هذه البلاد التي عمرها الإسلام أربعة عشر قرناً عدد كبير من المخطوطات لم نعرف عنها شيئاً حتى الآن.

* * *

أما أهم المكتبات في بلادنا المحتلة فسأذكر منها ما وقفت عليه، وعمدتنا في ذلك ما كتبه العلماء المحدثون وما سمعناه من المهتمين بالتراث والفكر.

- فقد كتب الدكتور محمد أسعد طلس بحثاً عن دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها، ونشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٥م.

- وكتب فيليب طرازي فصلاً عن خزائن كتب فلسطين، وذلك في كتابه: «خزائن الكتب العربية في الخافقين» المطبوع في بيروت سنة ١٩٤٧م.

- ونشرت الأستاذة خيرية قاسمية بحثاً عن (المخطوطات العربية في فلسطين) في مجلة المورد سنة ١٩٧٦م.

- وكتب الدكتور فؤاد سزكين فصلاً عن دور الكتب في كتابه «تاريخ التراث العربي: مجموعات المخطوطات العربية في مكتبات العالم» المطبوع في الرياض سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

- وكتب الأستاذ كوركيس عواد فصلاً عن فهارس المخطوطات في فلسطين في كتابه: «فهارس المخطوطات العربية في العالم» الذي صدر في هذه السنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م).

- ومما اعتمدنا عليه أحاديث علماء فلسطين عن هذا الموضوع.

فمن هذه المكتبات ما يأتي :

١ ـ مكتبة دير الكرمل في حيفا.

٢ ـ مكتبة الحرم الإبراهيمي في الخليل. وقد طبع فهرس مخطوطاتها في عمّان سنة ١٩٨٣م. ومعلومٌ أن الحرم الابراهيمي تعرض في السنوات الأخيرة إلى اعتداء أثيم من قبل اليهود المتعصبين الوحوش.

٣ ـ مكتبة سعيد الكرمي في طولكرم(٤).

٤ ـ مكتبة مسجد أحمد باشا الجزار في عكّا.

٥ ـ مكتبة حسن صدقي الدجاني بالقدس.

٦ ـ المكتبة الخالدية بالقدس : وقد تأسست سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) وصدر لها فهرس مكتوب بالآلة الكاتبة عنوانه : « فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية والمكتبات الملحقة بها » وقال سزكين(٥) : كانت تضمّ حتى سنة ١٩٣٢م سبعة آلاف مخطوط عربي.

٧ ـ مكتبة دير مار سابا بالقدس.

٨ ـ مكتبة دير مرقس بالقدس.

٩ ـ المكتبة الزراعية في زمّارين(٦).

١٠ ـ مكتبة المدرسة الصلاحية بالقدس : وأحب أن أشير هنا إلى أنّ كلمة (مدرسة) كانت تطلق غالباً على ما ندعوه اليوم (جامعة). وهذه المدرسة من الأبنية الأثرية القائمة حتى الآن في القدس. ويبدو أنَّ صلاح الدين الأيوبي هو الذي أنشأها. رحمه الله تعالى.

١١ ـ خزانة عبدالله مخلص : وقد تحدث عنها صاحبها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في المجلدين ١٧ و٢٠ الصادرين في سنة ١٩٤٢م وسنة ١٩٤٥م.

١٢ ـ مكتبة دير الروم بالقدس.

١٣ ـ مكتبة المسجد الأقصى : وقد أعدَّ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن (مؤسسة آل البيت) جزءاً في فهارس مكتبة المسجد الأقصى بالقدس. وقال سزكين : كانت تضمّ نحو ألف مخطوط حتى سنة ١٩٤٥م.

١٤ ـ خزانة بيت الجوهري بمدينة نابلس.

١٥ ـ خزانة آل سفيان بمدينة نابلس.

١٦ ـ مكتبة الشيخ عبدالله خير من بني سنان في نابلس.

١٧ ـ مكتبة الجامعة العبرية : وقد أصدر فهرساً لمخطوطاتها معهد علوم آسيا وأفريقيا بتلك الجامعة سنة ١٩٦٤م.

وهناك مكتبات أخرى فيها مخطوطات أشارت إليها بعض المصادر، وأكدَّ لي نفر من علماء فلسطين وجود عدد كبير من المخطوطات فيها أذكر منها ما يأتي :

(١٨) المكتبة الفخرية بالقدس : وهي مكتبة آل أبي السعود، وقد ذكر لي الأستاذ موسى أبو السعود أن هذه المكتبة كانت توجد في الزاوية الفخرية القريبة من حائط المبكى، وهي زاوية آل أبي السعود، وقال : إن اليهود هدموا هذه الزاوية، فاضطر المشرفون عليها أن ينقلوا كتبها إلى دور بعض آل أبي السعود. وذكر أنّ فيها عدداً غير قليل من المخطوطات.

١٩ ـ مكتبة الخليلي في القدس : وتقع قرب باب السلسلة بجوار الحرم وفيها عدد من المخطوطات. وذكر الأستاذ عارف العارف أنها تأسست سنة ١٧٢٥م.

٢٠ ـ مكتبة آل قطينه بالقدس.

٢١ ـ مكتبة آل الموقت بالقدس.

٢٢ ـ مكتبة الكلية العربية بالقدس. وقد تأسست سنة ١٩٢٠م.

٢٣ ـ مكتبة البطريركية الأرثوذكسية في القدس. وقد تأسست سنة ١٨٦٥م.

٢٤ ـ مكتبة القديس المخلص بالقدس. وقد ذكر الأستاذ عارف العارف(٧) أنها تأسست عام ١٥٥٨م ونقطع بأنَّ في هذه المكتبة مخطوطات كثيرة، لأن الطباعة في هذا الوقت كانت قريبة الظهور ولم تكن قد تقدمت، ولا عمّت.

٢٥ ـ مكتبة كنيسة القديس جورج التي تأسست(٧) سنة ١٨٩٠.
٢٦ ـ المكتبة الانجيلية الأثرية الفرنسية التي تأسست(٧) سنة ١٨٩٠ أيضا.

٢٧ ـ مكتبة الشيخ خليل الخالدي بالقدس.

٢٨ ـ مكتبة إسعاف النشاشيبي بالقدس.

٢٩ ـ مكتبة إسحاق موسى الحسيني بالقدس.

٣٠ ـ المكتبة الحسينية بالقدس، وهي مكتبة آل الحسيني.

٣١ ـ المكتبة الدوادية بالقدس.

٣٢ ـ مكتبة آل جارالله.

هذا وقد ذكر الأستاذ عارف العارف أسماء تسع وأربعين مكتبة عامة(٨) في مدينة القدس تغشاها الجماهير في أي وقت شاءت، وذكر تاريخ تأسيس أربع وثلاثين مكتبة أقدمها مكتبة القديس مخلص التي ذكرناها آنفا وأحدثها مكتبتان هما مكتبة المعهد البريطاني، وقد تأسست سنة ١٩٤٤م ومكتبة قلم المطبوعات بحكومة فلسطين وتأسست سنة ١٩٤٤م أيضا.

° ° °

ولعلَّ الايام المقبلة تطلعنا على أخبار مخطوطات في فلسطين لم يكن يعرف الناس عنها في الماضي شيئاً.

° ° °

أما الاقتراح الذي أطرحه لحفظ هاتيك المخطوطات فهو اقتراحُ ميسور، وهو صورة

تراءت لنا من صور الإنقاذ، وربما كانت هناك صور أخرى أحسن وأنفع، ولكنْ هذا الذي بدا لنا. وفوق كل ذي علم عليم.

ويتلخص الاقتراح بما يأتي:

١ ـ تصوير هذه المخطوطات كلها، ونقل هذه المصورات إلى أكثر من مكان في العالم العربي.

٢ ـ ترميم ما يمكن ترميمه من هذه المخطوطات التي تعرضت للفساد والبلى، وذلك بالطرق الحديثة.

٣ ـ العناية بها حفظاً وصيانة وتجليداً، وذلك برصد المال الكافي لذلك.

٤ ـ فهرستها فهرسة علمية دقيقة.

وأحسب ان الجامعات العربية التي تربو الآن على الخمسين، تستطيع أن تسهم في تنفيذ هذا الاقتراح بتقديم الخبرة المتوفرة لديها. وبالمعونة المالية بحسب إمكان كل جامعة، وكذلك فإنَّ مؤسسات الجامعة العربية ومعاهد المخطوطات ودور الكتب والمجامع اللغوية تستطيع أن تشارك في هذا العمل المهم أيضاً.

* * *

إن الحفاظ على التراث مرتبط بوعينا، وقوتنا السياسية والعسكرية، وباعتزازنا بمُثُلنا. فإذا تحقق لنا ذلك كله كان حفظ تراثنا أمراً واقعاً.

إنَّ على القيادات الفكرية والسياسية في المسلمين أن تواجه هذه القضية الجزئية، وأن تعمل على معالجة أوضاعنا الفكرية والسياسية والاجتماعية بصورة عامة.

وإن أساس الاصلاح هو العودة إلى الإسلام وسلوك صراطه المستقيم والتعاون على تحقيق تلك العودة، كلٌّ في تخصصه وعلى قدر طاقته ويد الله مع الجماعة.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

الهوامش

(١) قرر ذلك الأستاذ سعيد سلمان وزير التربية السابق في دولة الإمارات في محاضرة ألقاها في مسقط في ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج التي أقامها مكتب التربية العربي لدول الخليج في شعبان سنة ١٤٠٥هـ.

(٢) «ديوان ابن دراج» ٧ ـ ٨ الطبعة الثانية ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

(٣) اذكر منهم العالم البحاثة الكاتب الأستاذ أكرم زعيتر وقاضي نابلس الشيخ مشهور الضامن والأستاذ موسى أبو السعود والشيخ عبدالحميد السائح والشيخ سعد الدين العلمي مفتي القدس.

(٤) وهي البلدة التي تعرف قديما بـ (طور كرم) وهي قريبة من نابلس وتقع في الجهة الغربية الشمالية منها، وانظر ما ذكرته عنها في مقدمتي لكتاب «القوائد الموضوعة» للعلامة مرعي الكرمي ص١٢.

(٥) انظر «تاريخ التراث العربي : مجموعات المخطوطات» ص١٨٧.

(٦) وهي بلدة تابعة لقضاء حيفا.

(٧) انظر كتابه القيم «تاريخ القدس» طبع دار المعارف بمصر ـ دون تاريخ ـ صفحة ١٩٨.

(٨) «تاريخ القدس» صفحة ١٩٨ ـ ٢٠٠.

مراجع البحث

- خزائن الكتب العربية في الخافقين ـ تأليف فيليب طرازي ـ مطابع صيقلي ـ بيروت سنة ١٩٤٧.
- تاريخ التراث العربي : مجموعات المخطوطات العربية في مكتبات العالم تأليف فؤاد سزكين ـ طبع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض سنة ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).
- فهارس المخطوطات العربية في العالم ـ تأليف كوركيس عواد ـ الكويت ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م).
- تاريخ القدس ـ تأليف عارف العارف ـ دار المعارف بمصر ـ دون تاريخ.
- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـ
- مجلة المورد ـ العراق ـ بغداد العدد الأول سنة ١٩٧٦.
- القوائد الموضوعة ـ تأليف مرعي الكرمي ـ تحقيق د. محمد الصباغ ـ دار العربية بيروت سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).
- ديوان ابن دراج القسطلي ـ تحقيق د. محمود علي مكي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٣٨٢هـ.
- صحيح ابن خزيمة ـ تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٣٩١هـ (١٩٧١م).